تحديد الأنا اليهودية وأثرها في الأنا العربية الفلسطينية

(دراسة تحليلية لرواية أشكول نبو «أربعة منازل وحنين»)

أمين دراوشة

مقدمة

تناولت في العدد السابق من مجلة رؤى تربوية موضوع الأنا والأخر، واستكمالاً للدراسة، سنتطرق في العدد الحالي لدراسة رواية إسرائيلية للكاتب أشكول نبو بعنوان «أربعة منازل وحنين»[1] وتحليلها.

تمهيد

«وكلما خيل لي أنني فهمت
كيف يعمل الأنت والأنا
الأنت والأنا
تتبدل أنشودة ويخدش ألبوم آخر».
(مقطع من أنشودة، كلمات وألحان: دافيد بصري)

تحكي الرواية عن حي يهودي شرقي في معوز تسيون (حصن صهيون)، انتقل إليه حديثاً بطلا الرواية عمير ونوعا.

عمير شاب يدرس علم النفس في تل أبيب، يعاني القلق، والسأم، يبحث عن تحقيق حلمه في أن يصبح طبيباً نفسياً، ولكنه في النهاية يستنكف عن استكمال دراسته، وكأنه منذ البداية لا يعرف ماذا يريد؟ والداه يعيشان في أميركيا، ومنذ صغره أرقته مشكلة التنقل والرحيل من شقة إلى أخرى، فهو يرجع سبب عدم استقراره إلى أمور عدة، أحدها صعوبة تحقيق الإنسان لآماله في ظل دولة تعيش دائماً في حالة رعب. ومن الأمور التي أثرت على شخصيته تجنيده في الجيش، وبالتالي تقييد حركته.

نوعا حبيبته عمرها 26 سنة، تتعلم التصوير في القدس، وتعاني هي الأخرى من تخبط في حياتها، ولا تعرف إلى أين تريد أن تصل، تعمل نادلة كي تستطيع تحقيق حلمها، واجهت الكثير من الإخفاقات في دراستها، تشعر أن لا أحد يفهمها سوى عمير.

فكرت أكثر من مرة في السفر إلى أميركيا. لكن عمير رفض الفكرة، فقد تنقل في حياته كثيراً، ما سبب له عقدة نفسية من الرحيل.

ويسكنا عند عائلة ممتدة، مكونة من موشيه زخيان وزوجته سيما ولديهما طفلان، ويسكن في الطابق الثاني والداه «أفرام وجينا» اللذان ما زالا يتحدثان مع بعضهما باللغة الكردية، والطابق الثاني هو بيت عربي قديم.

موشيه وسيما متزوجان منذ ثماني سنوات، وهو «أحلق الرأس قليلاً، يجيد تصليح أي شيء وحده ... لا يتكلم كثيراً، ويفضل العمل» (ص: 15). وهي «حادة اللسان، صافية الذهن» (ص: 15)، كما أنها «أم مثالية، وحنونة، ومحبة» (ص: 50).

موشيه متأثراً جداً بأخيه البكر، الراب الكبير في طبريا، مناحيم، الذي لديه سيطرة نوعاً ما على موشيه، وعندما يضغط عليه ويطلب منه وضع طفله في حضانة للمتدينين تبدأ المشاكل مع زوجته التي لا ترتاح لهذه التدخلات.

والداه فقدا طفلاً عمره سنتان اسمه نيسان عندما وصلا إلى إسرائيل وسكنا هذا البيت. وعانى والده أفرام نتيجة غلطة طبيب أثناء العملية الجراحية التي أجريت له من ضياع عقله وهذيان.

وهناك عائلة يوتام الفتى الذي يعاني الوحدة، والخوف، والقلق، بعد مقتل أخيه غيدي في لبنان، حيث أهمله والداهما وغرقا في حزن على ولدهما البكر، وكفّا عن القيام بأي عمل إيجابي.

وآخر الشخصيات اليهودية في الرواية أصدقاء عمير دافيد الذي وجد حلاً لقلقه بالتأليف والغناء، ومودي الذي أنهى خدمته بالجيش الإسرائيلي وسافر إلى أميركا اللاتينية، لأنه أحس بالحاجة إلى حياة أكثر استقراراً، ولكنه يقرر في النهاية العودة إلى بيته وعائلته بعد أن علّمه السفر والرحيل كيف ينظر للناس، ويفتح قلبه لهم.

أما الشخصيات العربية، فهناك الشخصيتان الرئيسيتان، وهما صادق العامل العربي في البناء، وأمه العجوز التي هجّرت من بيتها إلى إحدى مدن الضفة.

صادق عانى في حياته من القلق على عائلته، زوجته وأولاده، لأن توفير حياة كريمة لهم في ظل الاحتلال أمر صعب تحقيقه. أمه زرعت في قلبه الحنين إلى بيتهم القديم في القسطل، فسيطر عليه الأمر حتى استطاع تحقيق حلمه ودخول بيته الأول.

جانب من زيارة مركز المعلمين في نعلين.

وأمه، شخصية فلسطينية قوية وصلبة، ولا تعرف اللين، وبخاصة عندما يتعلق الأمر ببيتهم القديم، فحنينها إليه لا يمكن بلوغ مداه، رفضت الذهاب بعد احتلال 1967 كما الآخرين لزيارة بيتها الأصلي في القسطل، قائلة إنها ليست كهؤلاء اللاجئين المساكين، وإذا أرادت الذهاب فلن تكون للزيارة، بل من أجل الإقامة فيه، كما أنها مثقفة وتتابع الأخبار السياسية، ولها آراؤها الوطنية العميقة. في النهاية تخبر ابنها صادق عن سلسلة الذهب التي تركتها في البيت القديم، وتطالب ابنها باستعادتها، فهي سلسلة متوارثة عبر الأجيال.

يفلح صادق في دخول البيت القديم واستعادة السلسلة، ولكن الشرطة الإسرائيلية تقبض عليه وتودعه السجن، وتبقى السلسلة تأتيه في كوابيسه وأحلامه، سارقة منه النوم.

في الرواية يورد الكاتب وجهات نظر عدة حول الشخصية الفلسطينية، أولاها وجهة نظر الكاتب نفسه، وكانت معتدلة وهذا نابع من توقيع اتفاقية السلام الإسرائيلية الفلسطينية من جانب، وصمود الفلسطينيين على أرضهم وفشل المشروع الصهيوني في التخلص منهم من جانب آخر. كما أظهر الكاتب الشخصية الفلسطينية بشكل قوي، فصادق شخصية قوية تسعى إلى تحقيق ما تريد، ويعرف إلى أين يريد أن يصل، وله سيطرة على حياته وقراراته، والدته ظهرت كامرأة مثالية وفية، ومحبة، ولها رأيها في الحياة، وتعبر عن مكنونات نفسها دون خوف أو حرج.

وهناك وجهة نظر الشخصيات النسائية اليهودية، فالعجوز جينا التي تمثل الجيل المؤسس للدولة، تنظر على أن العرب مجرد لصوص ويجب الخوف منهم، أما نوعا وسيما وهما من الجيل الشاب الجديد، في البداية ينظران إلى العربي كشخصية مثيرة للقلق ومخيفة، وهذا نابع من الجهل وعدم معرفة العربي، وعندما يصطدمان بالشخصية العربية تتغير نظرتهما وتشعران بالتعاطف معها.

أما النظرة المتعصبة والعنصرية، فيعبر عنها رؤوبين الذي خدم سابقاً في الجيش الإسرائيلي، ودفع ابنه البكر غيدي للانخراط بالجيش، ما أدّى إلى مقتله في حرب لبنان، حيث ينظر إلى العربي كشخصية مجرمة ومخربة ويجب مطاردته في كل مكان من أجل قتله.

الصراع العربي الإسرائيلي يحدد الأنا اليهودية

«أنا ونوعا مخادعان.
كلانا يتظاهر أمام العالم وأمام الآخر بوضعية مرتاحة وهادئة حاوية كل شيء،
بينما يوجد في داخل كل منا اضطرابات هائلة».
(بطل الرواية عمير، ص: 112)

هواجس جيل المستقبل الإسرائيلي

من بداية الرواية، يحدثنا عمير عن الشرخ في المجتمع الإسرائيلي، بين الفقراء والأغنياء، بين الشرقيين والغربيين. وعن تغيير أسماء المناطق العربية إلى العبرية.

فيقول حول موقع شقته الجديدة «هضبتان وبينهما أخدود، قاسم مشترك. الهضبة الأولى أشكناز للقادمين، معتنى بها، مرتبة ... مفسيرت -البشيرة- الهضبة الثانية كانت مسكناً مؤقتاً للقادمين من كردستان، أما الآن فهي عموماً فوضى. أكواخ من الصّفيح إلى جانب الفيلات، خرائب إلى جوار الورود ... الاسم غير الرّسمي: القسطل على اسم الاستحكام العسكري في قمة الجبل. سقط هنا ضحايا في حرب التّحرير، واليوم هو موقع يُزار». (ص: 9)

ويطالعنا أيضاً منذ السطور الأولى، تأثير الصراع، ففي طريقه ونوعا للبحث عن شقتهما يدخلان بالخطأ إلى مأتم، وخجلا من الانسحاب «وسمعا القصص عن الولد الذي سقط في لبنان». (ص: 10)

وعن توقيع عقد الإيجار قال لهم صاحب الشقة كتنبيه، إن الجيران هنا «ابنهم قتل في لبنان هذا الأسبوع، لذلك إذا أردتما الاستماع إلى الموسيقى، فلتكن كما يقولون، موسيقى هادئة». (ص: 12)

ففي أثناء الصراع تتغير عادات البشر، وينتقل بنا عمير لحديث ذي صلة بالصراع، فالطابق الثاني يسكن والدا صاحب الشقة موشيه وهو ما «تبقى من البيت العربي الأصلي». (ص: 20)

«فمهما حاول اليهودي الهرب من واقع الصراع، فالشواهد لا تترك مجالاً لذلك، ويرى الأولاد بعضهم مع ذوائب على أصداغهم... يعلبون الاستغماية». (ص: 21)

والكاتب يشير هنا إلى أن الفقر يؤدي بالناس إلى الاتجاه نحو الدين.

وعلى الرغم من صعوبات الحياة التي يواجهها عمير، فإنه يعيش أيام أمل، فشركة بايلوت تنشر إعلاناً هو صورة مراسيم توقيع إتفاقية السلام و«أبو ظبي تفكر في تجديد علاقاتها مع إسرائيل ... يتحدثون عن مشاريع اقتصادية، تعاون زراعي، خيار الشجعان ... في قرية عربية بالمثلث يعرضون بيوت ضيافة لعامة اليهود ... ولا يصدّق». (ص: 26)

ولكن عمير بطل الرواية، والطامح بالحصول على لقب طبيب نفسي، تعتمل في داخله الهواجس، فهو شخصية قلقة، خائفة من المستقبل، ولم يحدد بعد ماذا يريد أن يفعل؟ يشعر بالضجر وتطارده الأفكار السوداء. فيقول إنه عندما يبدأ بالدراسة يصاب بالقلق و «أبدأ بالتسكع، ألتهم الزبيب، أقشر البرتقال وآكل قشوره، وأرمي كرة تنس على الحائط». (ص: 116)

وينتظر من كرة التنس أن تكسر شيئاً لحدوث دراما، إذ «لولا الدراما لجاءت الأفكار السامة». (ص: 116) ويتساءل بحيرة وقلق، ماذا سيحدث؟ «ما الذي سيحدث عندما تنتهي المدخرات؟ ماذا سيحدث للدراسة؟». (ص: 117) كيف سأصبح طبيباً نفسياً وكل شيء يدلف إلى داخلي؟ «أتأثر بكل شيء، لدرجة أنه لا يوجد لديَّ ضحك خاص بي، في كل مرة أتبنى ضحكة شخص قريب مني». (ص: 117)

وتؤرقه قضية التنقل من مكان إلى آخر، فهو لا يشعر بالأمان والاستقرار منذ صغره، فعائلته انتقلت بين كثير من الشقق، من القدس إلى حيفا والعكس، ثم من القدس إلى ديترويت. وحتى بعد أن أصبح رجلاً، بقيت القضية تطارده وواصل تبديل الشقق كمن تّملكه الجّن، «سبع شقق بدّلت منذ التجنيد». (ص: 39)

ويحس أنه مصاب بمرض الوسواس القهري على وجه التحديد، «عدت بالأمس مرتين لأفحص إذا ما تركت الغاز مفتوحاً، ومرة لأفحص إذا كنت أغلقت الباب بالقفل العلوي. أهو رهاب؟ لا شك». (ص: 52)

وعندما قرر التطوع للعمل في جمعية تعتني بالمرضى العقليين، بعد علاجهم لجعل حياتهم أفضل، كاد يصاب بالجنون. هواجس الدنو من الموت تطارده، ففي أثناء قيادته سيارته دائماً ما يشرد فكره، وهو يبحث بين محطات الراديو، فيكاد يتسبب بحادث، ولكنه ينجو و«يدرك أن هذا لا يغير شيئاً، فسيحدث المنظور، وهو يرى بعينيه العنوان «مات لأنه سئم إذاعة الجيش». (ص: 221)

والجيش يلعب دوراً محورياً في حياة عمير كما في حياة أغلب أبطال الرواية، ففي إحدى الليالي، أيقظ نوعا ليخبرها قصته المدهشة في أثناء التدريبات. «لقد أبقوه يوم السبت للمرة الثالثة على التوالي، وسقط في دوامة ولم ينجح في أن يتعلّق بأي شيء، بأية أغنية، ووجد نفسه يوجه البندقية نحو رجله ليطلق النار، ليخرج ويتحرر». (ص: 290-291) ولكن مودي أنقذه، والرصاصة أصابت الحائط.

فدخول الجيش بالنسة له وللكثير من الإسرائيليين سجن، يقيد حريتك ويسلبك إياها، ويحجب عنك الفضاء الرحب، وهذا ما دعا صديقه مودي عند إنهاء خدمته إلى السفر الطويل إلى الخارج.

علاقته بصديقته نوعا يشبوها التوتر في أغلب الأحيان على الرغم من حبهما الكبير لبعضهما، وهو لا يطيق فراقها أبداً، يقول عنها «لم نتخاصم، على الأقل ليس خصاماً كبيراً. المضاجعة بيننا قوية وشديدة، كأحلى ما يكون. والصورة التي تفهم فيها دخيلتي، وكيف تستطيع بجملة واحدة أن تخترق كلّ تحصيناتي وتلامس الحقيقة». (ص: 59)

لذا يبقى ينتظرها بفارغ الصبر في البيت، فورديتها في المقهى لا تنتهي قبل الثانية عشرة ليلاً. ولكنه يقول: «ومن جانب آخر، ودائماً هناك جانب آخر عندي، تعتريني رغبة أن أظل وقتاً إضافياً وحدي. أروح وأجيء». (ص: 58)

في داخله تختمر فكرة الحاجة إلى البقاء وحيداً، هو بحاجة إلى الوحدة لعله يستطيع الوصول بأفكاره المشوشة إلى الخلاص من حالة اللااتّزان والتوتر واليأس من تحقيق أي شيء في حياته. وكانت الفكرة نفسها تولد في عقل نوعا، ففي طريق عودتهما من رحلتهما إلى سطاف، دار بينهما نقاش حاد، فقالت له: «سئمت من العيش هنا، لذا بدأت التفكير في الدراسة لشهادة الماجستير في الفنون خارج البلاد، في نيويورك مثلاً». (82)

عمير يرد غاضباً، أنه سئم من التنقل ويريد الاستقرار. نوعا تحس في داخلها أنها غير محبوبة، وأن لا أحد يفهمها، تريد أن تصبح مصورة محترفة، تواجهها العقبات، فهي تختار موضوعاتها من الواقع المعاش؛ الفقر، التفجيرات، وتمس بكاميرتها معاناة الفلسطينيين، لذا تتعرض إلى الهجوم والسخرية عند نقاش موضوعاتها في قاعة المحاضرات.

تقول عن نفسها: «إن هناك شيئاً قاسياً في داخلي، لا يسمح للناس بأن يحبوني». ويخبرها عمير أنه يعرف ذلك، فتقول إنهما متشابهان جداً، ويرفض الحديث قائلاً: «غير صحيح، أنت فوضوية، وأنا مرتّب». فتضيف بتوتر: «كم من المرّات سأوضح لك، أنا لست فوضوية، أنا حرّة». (62)

وعمير عاشق للموسيقى، فهي أنقذت حياته مرات عدة، و«كلما

تلقى ضربات قاسية، خلال خدمته العسكرية مثلاً، كان يتشبث بأغنية ... ويدع الأنغام تتغلغل فيه، وتبدأ العد من جديد وتذكر أن حياته ليست سيئة إلى هذا الحد». (221)

التفكير في النهاية العبثية لحياته، يؤرقه ويجعل حياته لا تطاق، لولا هروبه إلى الموسيقى التي تشعره أن هناك شيئاً في الحياة يستحق أن يعاش. لقد فقد الأمل بأن تحقق الدولة الاستقرار والأمان، وعندما يفكر بالموت يفكر بنوعا، فهي الأخرى سبق لها أن دنت منه وعادت، فعندما كانت تبلغ الخامسة عشرة عاماً «سئمت كل شيء، وأعدت بجانب سريرها علبة «أكامول» كاملة. فكرت في نفسها: أبضع دقائق من الغثيان وتنتهي معاناتي؟». (ص: 221)

الكل في إسرائيل يعاني؛ طفلاً وشاباً وعجوزاً، فحالة الحرب التي تصنعها إسرائيل لنفسها، تؤثر على كل إنسان يهودي، وتشعره أنه سيقضي حياته كلها في صراع مرير لا ينتهي، وأن حياته الخاصة تتلاشى، صديقته نوعا انتهى بها المطاف بغسيل معدة، ووافق الطبيب بعد محاولات لإقناعه أن يلغي من ملفها «محاولة انتحار» لتستطيع الخدمة في الجيش «مضحك، وقد ظنت أنه يسدي لها معروفاً». (222)

فالحياة داخل الجيش، لا شك، أنها تقصر وتقصف الحياة.

لم تتعافَ نوعا بواسطة العلاج النفسي، بل لسبب غير معروف، إذ أخذت فجأة ترسم، ثم بعد سنوات التقت عمير وأحبته وأخبرته بكل تفاصيل حياتها.

العلاقة بينهما بين شد وجذب، وفي توتر دائم، وخوف من الفراق الذي بدأت ملامحه تظهر، وعلى الرغم من الحب، وقدرة أحدهما على اختراق الآخر ومعرفة ما يجول في فكره، فإن استمرار علاقتهما يواجه صعوبات، ويطلعنا عمير بلحظة صدق أنه ونوعا «مخادعان، كلانا يتظاهر أمام العالم وأمام الآخر بوضعية مرتاحة وهادئة حاوية كل شيء، بينما توجد في داخل كل منا اضطرابات هائلة». (112)

وتلمع فكرة الفراق، وتفكر هي بالرحيل المؤقت إلى تل أبيب، فمشروعها الدراسي لا يسير على ما يرام، وهو توقّف عن دراسته، وشرع الضجر ينخره، وعلى الرغم من اعتراضه على رحيلها، فإنه داخلياً يهمس لنفسه «منذ زمن لم تهرب، منذ زمن لم تنتقل إلى مكان آخر». (303)

ويفترقان، وتنجح نوعا بتحقيق حلمها، وتجد فكرتها الضائعة حول مشروع تخرجها. أما عمير فشعر باشتهاء جارته سيما، التي تفكر وتحلم به هي الأخرى. فعندما حضرت لزيارته، وجلست بقربه، ضعف تركيزه، ويقول: «أردت أن أنحني وأضع الأغلال في كاحلها، استطعت أن أتخيل ملامسة جلدها». (395)

وعندما انحنت وبانت صدريتها السوداء، شعر عمير بأغرب شعور في العالم. إن القبلة ستأتي، ولكن نوعا كانت «حاضرة في جو الليلة» (398). فهو يحس أنها جزء لا يتجزأ من حياته المحطمة، ولا يمكن لأحد لملمة أشلائها سواها.

جانب من لقاء عبد المحسن القطان وعمر القطان بعدد من المعلمين والفنانين بمقر المؤسسة في رام الله.

الجيل الجديد والبحث عن الهوية المتصالحة

الأنا اليهودية وتأثير الآخر الفلسطيني

«لماذا لسنا فرحين في الآونة الأخيرة؟
كل شيء مضغوط بيننا، مضغوط ومبعوص».
(نوعا بطلة الرواية، ص: 290)

نوعا بطلة الرواية، يتضح من خلال رأيها بالشخصية الفلسطينية العربية، أنها تملك موقفاً مسبقاً منها، فهم قد يكونون سارقي صحف، وعمير لم تظهر وجهة نظره بشكل جلي، لكنه يتعاطف مع أوضاع عمال مدموني. أما سكان الحي، فموقفهم يتضح، بعد انفجار السخان الشمسي في بيت سيما، حيث يخرج كل من في الحي لمعرفة السبب، والكل يظن، أن الانفجار ناتج عن «صاروخ سكود.. .. أو عمليّة تخريبيّة». (ص: 63)

كل السكان، اختلف نمط حياتهم الاعتيادي، وأصبحوا يرتاعون من أي صوت، خوفاً من أن يكون عملية فدائية. فالفلسطيني يزرع الخوف في قلوب اليهود، ويجعلهم دائماً في حالة حذر وتأهب.

سيما، عندما رأت صادق في الساحة القريبة من البيت، فكرت باستدعاء الشرطة، لأنها خافت على طفلتها، فالعربي قاس وعديم الإنسانية، ولا بد أنه ينوي عملاً فظيعاً «عربي يتجول هنا في الساحة. وماذا لو أراد أن يخطف الطفلة؟». (ص: 51)

ولما مرت بجانب عمال مدموني وكانوا «اثنين من الشباب. وصفا الطوب وصوّبا نحوي نظرات جائعة، غير لطيفة». (ص: 51) إذ من الصفات الملتصقة بالعرب، أنهم مولعون بالجنس، ويمتازون بملامح قاسية وعدوانية.

وفي بركة سباحة تلتقي نوعا، بطفل عربي يجلس على حافة البركة وانطباعها حول الطفل أن له «نظرة جادة وغاضبة كل الغضب، الحاجبان مقطبان»، وترى قدمه تخرج من الماء، وتجهز نفسها لتوجيه ركلة في الهواء ولكنها على ما يبدو موجهة نحو الكاميرا والمصورة، يمكن أن والديه كانا «يسكنان في القرية العربية التي اقتلع سكانها من هنا عام ثمانية وأربعين، وفي إطار زيارتهم إلى العين، لتذكر الماضي، قررا أن يحكيا للطفل عمن ركلهما من هذه البلاد؟». (ص: 80-81)

تبدأ نوعا، على ما يبدو، تتفهم الموقف العربي، وتتحدث عن طردهم من بيوتهم، وعن ذاكرتهم التي لا تنسى الحق المسلوب. وعندما تتذكر التفجيرات، تقول لعمير إنها «سئمت من العيش هنا، في هذه البقعة التي تلتهم سكانها». (ص: 82)

وتفكر بالسفر خارج البلاد للدراسة، وعمير يرفض الأمر، وعندما يعلن التلفزيون عن وقوع عملية تفجيرية، يورد الكاتب على لسان المذيع المنتفخ «أن من بين القتلى نساء وأطفالاً». (ص: 187)

وتتصل «هيلا» صديقة نوعا، بعمير للاطمئنان عليها، وتقول له: «إنه جد فظيع، كم من الكراهية يحتاجون للقيام بشيء كهذا؟ ... ألم يسمعوا بمقاومة اللاعنف؟». (ص: 189)

هنا الكاتب يناقش عبثية العمليات التفجيرية التي تقتل الأطفال والنساء، ويتحدث عن العنف الفلسطيني غير المبرر من خلال شخصية ثانوية في الرواية، ويطالب على لسان «هيلا بـ»أن يقاوم الفلسطينيون بطريقة اللاعنف، ولكن الغريب أن الكاتب لم يناقش عمليات قتل وإعدام الفلسطينيين فلِمَ لم يطالب بأن يرحل الاحتلال؟ أو أن يكف عن ارتكاب المجازر الدموية بحق الشعب الأعزل، وهو يعيش في دولة تملك أقوى ترسانة حربية في المنطقة، وتملك أكبر سجل في انتهاك حقوق الإنسان. وفي حالة إسرائيل، يبدو أنها كلما ازدادت قوة، ازدادت مخاوفها وهواجسها.

بعد العملية التفجيرية في شارع يافا، حاولت نوعا تصوير مجموعة من الصور، فصعدت إلى باص للركاب و»كانت معظم المقاعد شاغرة، نظر إلي المسافرين القلائل بقلق حاولوا ... تفحص الحقيبة المنتفخة التي أحملها «إنها كاميرا: أطمئنوا يا جماعة!». (ص: 195)

وطلبت تصوير الركاب و»كان الناس مهزومين لدرجة لا يقوون معها على مناقشتي». (ص: 196)

يتوضح لنا من خلال ما سبق، أن الفلسطيني موجود دائماً لينغص على الإسرائيلي حياته، ويجعلها لا تطاق، ويقلب حياته رأساً على عقب، ويشوش أفكاره، ويجعله يشك في كل شيء، ويتخيل أي

حقيبة قنبلة.

أما العلاقة بين عمير ونوعا بعد العملية التفجيرية، فيعبر عنها عمير قائلاً: «جميل جداً، ستدير ظهرها الآن، وسنقضي ليلة أخرى بلا جنس». (ص: 212)

ويتحدث عن الموت الذي يسكن كل إسرائيلي خوفاً من ذاك الفلسطيني الذي لا يكف عن إحداث الفوضى، حتى لا ننسى نحن اليهود وجوده. ويضيف: «منذ أسبوعين لم نضحك. هذا الموت المحيط بنا زحف كله إلى داخلنا». (ص: 121)

بعد أيام تحدث نوعا عمير عن صادق الذي دخل بيته القديم وبيت أفرام وجينا حالياً، وكيف أنه انتزع اللبنات من الجدران وأخرج سلسلة ذهبية، وعندما سأل عمير وماذا أيضاً، قالت «صادروا له السلسلة واعتقلوه، ليس لأنه خطير أو ما شابه. كان عليك أن تراه، إنه رجل عجوز، كل ما أراده هو زيارة بيته، وحتى سيما أشفقت عليه في النهاية». (ص: 269-270)

يعود الكاتب، هنا، ليثبت لنا فشل الفلسطيني في الحصول علي شيء من حقه، لا بالتفجيرات، ولا بأسلوب الإقناع الهادئ، إذن ما هو الحل؟

ترحل نوعا إلى تل أبيب، وتسكن بالقرب من مجموعة من الشباب العربي، وتحدثنا عنهم قائلة: «هنا العرب لطفاء، ... يلعبون ويضحكون» (ص: 356)، ولكنهم حالياً ليسوا سعداء، هناك شيء يؤرقهم. إنه الخوف أيضاً، فالفلسطيني مهدد بالقتل أو السجن أو الطرد في أي لحظة.

ونراها بفكرها الجديد، والنظرة المختلفة اتجاه العربي. وتذهب مع أحدهم ليدلها على أماكن يمكن أن يساعدها في مشروعها، فيدخلان أحد البارات المميزة، وتثمل وتعود إلى شقتها وقد لمعت فكرة مشروعها في عقلها، وعرفت ماذا تريد أن تفعل في مشروعها النهائي «أعطيت للفكرة في تلك اللحظة كلمة واحدة –حنين– أن تنتشر في رأسي وأن ترسل تداعي خواطري في جميع الاتجاهات». (ص: 414)

وشرعت ترسم على أوراق موضوعات متنوعة، وتلصقها على الحائط بالصمغ. في الوسط علقت صوراً لها مع تلفون باليد، وأحاطتها بأناس يشعرون بالحنين، أمها، وصادق «مع سلسلة جدته الذهبية، مربوطة حول العنق، وكانت هناك قادمة جديدة من الأرجنتين ... ومنظم سينما...». (ص: 414) ثم أكملت المشروع بإضافة شرطي مرور يحن لكلبته الضائعة، وعربي يقف أمام بوابة بيت يحمل مفتاحاً كبيراً وصدئاً، وشاعر شاب، ومغنية.

وجاءها طيف عمير، وبعد سماعها عن حدوث تفجير آخر، اتصلت به وعادت إليه، فقد اكتشفت حنينها إليه، إلى عناقه، إلى التشاجر معه، إلى شم رائحته ... .

وفي النهاية تقول سيما عن عمير ونوعا: «إنهما متشابهان، ... من الداخل. وكأنهما من القرية نفسها، لا من الدولة نفسها، وفقط لهما توجد هوية هذه الدولة». (ص: 454)

الكاتب يقوم بإعادة تجميع للعائلة اليهودية، المفككة والمضطربة، التي يلتهمها القلق والخوف من الآخر العربي الفلسطيني.

العائلة اليهودية تتحد وتتماسك من خلال المؤلف، لأن أمراً آخر سيقود إلى انهيار المجتمع ومن ثم تتلاشى الدولة. ولكن هذا وحده لا يكفي، فالكاتب يلمح في أكثر من موضع في الرواية، أن الشعبين يعانيان، ومرهقان، ويشدهما الحنين كلّ إلى ذكرياته وأحلامه.

فهل سينجح مشروع نوعا الذي يحوى صوراً متنافرة على لملمة الكل والاتجاه نحو الآمان والاستقرار؟

عبد المحسن القطان خلال حضوره ورشة توظيف الرسوم المتحركة في التعليم.

زحف المتدينون من أجل السيطرة على الدولة

«ينبغي تقوية العقيدة، واستعادة المجد التليد، والرد على كل الساخرين بالصلوات من أجل تبارك اسمه».
(الحاخام مناحيم، ص: 73)

يتناول الكاتب في روايته، محاولات المتدينين السيطرة على الدولة، من خلال حضانات الأطفال والمدارس الدينية والمجالس المحلية، ودورهم المؤثر في المجتمع الإسرائيلي.

وتظهر في الرواية شخصية متدينة فاعلة، هي الراب الكبير في طبريا، مناحيم، الأخ الأكبر لموشيه، وتأثيره العميق على أخيه وأفراد أسرته، وبالتالي تدخله في تحديد الهوية الإسرائيلية الخاصة، ومحاولة فرض تعاليمه على المجتمع.

ولكي نرى كيف تؤثر هذه الشخصية على حياة الإسرائيليين، لنأخذ سيما المرأة المتحررة وقوية الشكيمة، زوجة موشيه مثالاً. فهي تشعر بالارتباك وعدم الراحة، عند زيارة أخوة زوجها لبيتهم، لأن ذلك يتطلب تحضيرات كثيرة يجب القيام بها، فتقول: «عليّ أن أفحص أن سكيناً حليبية لم تتسلّل إلى درج اللحميّة. أن أتأكد أن جميع المنتجات في الثلاجة حلال تماماً، لأن تصريح المحكمة الدينية العادية لا يكفيهم ... أن أبحث عن منديل الرّأس...». (ص: 19)

وهو يتدخل في أدق تفاصيل حياتها، حتى أنه يظهر امتعاضه من ملابسها. وعندما يقومون بزيارته في طبريا، يظل طوال الوقت يبدي ملاحظاته اللاذعة حول لباسها.

وهي لا تحبذ زيارته، وعلى الرغم من أنها وعائلتها لا يزورونه إلا مرتين أو ثلاثاً في السنة، فإن زيارته توتر الأعصاب، وتثير الملل وتتمنى سيما انتهاءها دون مشاكل. فشعورها الأولي عندما وصلوا بين الحاخام، لقد «فسد مزاجي على الفور». (ص: 68)

ولما وقفت بجانب بلها زوجة الحاخام، حدثت نفسها: «مهما حاولت ارتداء الملابس المحتشمة أحسست بأن ملابسي فاضحة إذا ما وقفت» بجانبها. (ص: 68) فنظرت إلى أزرار قميصها، خوفاً من أن يكون أحدها غير مغلق.

وعند دخولهم البيت، حمل مناحيم الطفل ليرون أبنها، وأجبره على تقبيل التعويذة المثبتة على الباب. وقال بلغة جدية لموشيه: «ما حال تعويذات الأبواب في بيتكم؟». (ص: 69) ردّ موشيه بارتباك: التعاويذ موجودة وسليمة.

وبعد أن أقنع الحاخام أخيه بتسجيل طفله ليرون في حضانة للمتدينين، بدأت المشاكل تطرق بيت سيما، حيث رفضت بقوة دخول طفلها روضة دينية، ستفسد قيمه والأخلاق التي ربته عليها.

فقال لها موشيه: فيها «ساعات مضاعفة، ويقدمون طعاماً جيداً ... لا يضر الطفل تلقي القليل من تعليم الدين اليهودي واكتساب القيم». ولكنها عاندت قائلة: «الدين بالنسبة لك بيت، وهو بالنسبة لي سجن». (ص: 93)

فسيما امرأة قوية، ولا تتنازل عن أرائها تحت أي ظرف، فيتشاجران ويضطر موشيه للنوم على الكنبة. ويظهر هنا كيف أن المتدينين يؤثرون حتى بين الرجل وزوجته، بل إنها تعبر عن غضبها وحنقها على المتدينين، قائلة إنها عندما تضاجع موشيه، تسمعه يتمتم «الحمد الله، الحمد الله»، فتقول له: «ما الحمد الله؟ ما علاقة الله؟». (ص: 31)

أخذت سيما شخصيتها القوية والمستقلة من أمها الفرنسية، التي ربتها على قول رأيها والتعبير الحر عن نفسها، وكانت تقول لها: «رأسك صلب كالحجر» (ص: 111)، ولكنها كانت تفتخر وتعتز بها في داخلها.

موشيه لم يجد طريقة لإقناعها بأمر الحضانة، فقرر الذهاب إلى طبريا ليحصل على مساعدة أخيه. ويلفت نظره في طبريا أنها مدينة «مهملة تعج بالسخام وشرفاتها آيلة للسقوط. غير أن مبنى المدرسة الدينية كبير ومطلي من الخارج». (ص: 154)

يلمح الكاتب على لسان موشيه، إلى أن الدولة لا تبخل على المتدينين بالمال، وتقصر في تقديم خدماتها للمواطنين، وذكر الأمر في أكثر من موضع في الرواية.

يطرح موشيه مشكلته للحاخام، فيجيبه: «الصبر يا أخي ... يجب تقريب من ابتعد عن التوراة، ولكن ليس بالقوة، إنما بالعقل». (ص 162) ويفضل أن تترك الموضع الآن، على أن تحضر إلى البيت الكتب الدينية، ولا تفوت الاحتفال بكل أعياد إسرائيل، وسيفتح قلب امرأتك. وعندما يبدي موشيه عدم ارتياح، يضيف الحاخام:

«يا أخي، إنه حتى قبل 50 عاماً كان في طبريا فقط 400 طالب يدرسون الدين؟ بينما اليوم، حمداً لله، يوجد 3500 طالب يدرسون التوراة، وثلاثة مدارس دينية كبيرة، وأربع حضانات، وخمسة مقاعد في مجلس البلدية». (ص: 163) وكل ذلك تم دون إكراه، وبطرق سلسة وبسيطة. فالمتدينون في إسرائيل استطاعوا السيطرة على الكثير من مفاصل الدولة، فلهم مدارسهم الخاصة، وحتى مطاعمهم التي لا تقدم إلا الأكل الحلال وحسب الشريعة اليهودية.

ومن الملاحظ أن أغلبية كتاب إسرائيل، يطرحون هذه القضية بقوة، ويحذرون من سرقة الدولة من قبل المتدينين والمتطرفين.

ويورد الكاتب شواهد كثيرة تربط صعود المتدينين بالصراع العربي-الإسرائيلي، وتزايد حدته، فالبشر عند اشتداد الأزمات وانتشار الخوف والقلق، يلجأون إلى الدين طمعاً بالشعور بالراحة والأمان.

الحرب تخلخل العائلة اليهودية

«أمي لا تفعل شيئاً طوال اليوم،
تجلس وتنظر إلى صورة فقط، ...
وأبي يتأخر في العمل، قصداً،
يشاهد الأخبار، ...
ويعلن عن رأيه بصوت عال،
رغم أن أحداً لا يصغي إليه».
(الفتي يوتام، ص: 324)

يفرد الكاتب جزءاً لا بأس به من الراوية للحديث عن عائلة يهودية، قتل ابنها البكر في لبنان، وتأثير الحرب والصراع الإسرائيلي- العربي على العائلة اليهودية، وكيف أن الحروب التي تخوضها إسرائيل لا تنتهي وتؤدي إلى تحطيم العائلة اليهودية.

العائلة مكونة من الأب (رؤوبين)، والأم، ويوتام الفتى الصغير، وغيدي الجندي الذي قتل في الحرب.

فالفتى يقع عليه خبر وفاه أخيه كالصاعقة، والمواقف الصعبة التي تواجهه بسبب ذلك كثيرة. وهو يبكي بحرقه، ولكن ليس بسبب ما يظنه الجميع، بل يقول عن سبب ذلك «لأنني ما عدت أطيق فجأة، ودفعه واحده، أن لا أحد يعيرني اهتماماً». (ص: 13) بل إن والديه لا يكلمانه إلا لإصدار التعليمات له: «افرك أسنانك، اخفض صوت الحاسوب». (ص: 32)

ويقول عنه عمر إنه «وحيد دائماً، ولا يرفع ناظريه أبدا». (ص: 30)

وقد صادف قتل غيدي، اغتيال رابين، ويتحدث يوتام عن تأثير ذلك «جميع الناس في الشارع قلقون، يسيرون ببطء، وفي بيتي يسير كل شيء كالمعتاد، لا يفتحون التلفاز، لا شيء يهمهم». ويتذكر قول أمه لقريباتها مساء أمس: «كل واحد يبكي موتاه». (ص: 91)

جميع الناس مضطربون، يعانون، فالحياة وسط التطرف والحرب لا تولد إلا أناساً غير سويين، ويوتام يشعر بالوحدة داخل بيته، وحتى في مدرسته. وبدأ يحس بالطمأنينة والقرب اتجاه عمير، حتى أنه حلم بغيدي وقد تقمص صوره عمير صديقه الجديد. وأراد أن يفتح قلبه له، أن يخبره بكل آماله وأحاسيسه منذ وفاه أخيه، فهو لا يحبذ إخبار أحد بذلك، لا لمستشارة المدرسة التي «تهتم بترتيب الطاولة إثناء حديثنا». (ص: 55) ولا لوالدته التي لا عمل لها سوى الاستلقاء على السرير والنظر «إلى السقف أو إلى صورة غيدي». (ص: 100) أو حتى لوالده «المنطوي على نفسه وكأنة داخل قفص». (ص: 55)

إذن، وجود الصراع الذي تخوضه إسرائيل منذ ولادتها، ومستمرة فيه، يتسبب في انهيار الأسرة اليهودية، فالفتى يبحث عمن يهتم به ويشعره بالأمان، ولكنه لا يجد أحداً سوى الساكن الجديد في الحي؛ عمير.

ونتيجة لإهمال والديه، فإنه يحاول كسب اهتمامهم، بأن دار ظهره للدروس. وعندما استدعته المديرة، بسبب ذلك مخبرة إياه أن باب مكتبها مفتوح له دائماً، سخر في سره قائلاً: «هذا غير صحيح، لأن باب مكتبها مغلق». (ص: 100)

هنا، وكأن الكاتب يخبرنا بخراب كل شيء بسبب الصراع، وأن

الاهتمام بضحايا حروب إسرائيل الزائدة عن الحاجة غير موجود، ما يسرّع في انهيار العائلات اليهودية المتضررة مباشره من الحرب. وحتى نرى تأثير العرب على الشخصية اليهودية، علينا أن نستمع ليوتام يخبرنا ما جرى لوالديه «الآن فهو لا يلامسها، وهي أيضا لا تلامسه، أحياناً دون وعي، تلامس وركه وركها، ويلاصق بطنه ظهرها، ويلامس رأسها صدره. وفي الصباح يتجه كل منهما إلى عمله وكأن شيئاً لم يحدث» (ص: 114)، حتى عيد ميلاده، نسوه، على الرغم من أنه ذكرهم به ثلاث مرات طيلة الأسبوع.

ويخبرنا الكاتب عن الحالة السيئة، التي وصل إليها والدا يوتام، فوالدته تصلي «كل ليلة، قبل النوم، وتتمنى أن تستيقظ في الصباح لتكتشف أن شيئا لم يحدث –ويتساءل– كيف يمكنها التفكير بالمستقبل إذن، أو في الحاضر». (ص: 130)

أما الأب فهو «خامل غامض لا يستفيق إلى الحياة إلا إذا اتصلوا من الجريدة، أو من هذا المنتدى اللعين من أجل السلام والأمن». وكانت الأم تلتهم الكتب التهاماً، أما الآن «بالكاد تستطيع نقل نفسها من مكان إلى آخر لتمضيه الوقت». (ص: 131) فحياتها انقلبت رأساً على عقب بسبب الصراع مع الآخر العربي، الذي تسبب بفقدانها ولدها البكر.

وفي حديثها مع عمير تقول: «لا أستطيع أن أغسل الغسيل، فقط ملابس غيدي غسلتها ثلاث مرات كالحمقاء وطويتها، ورتبتها في خزانته، كأنه ذهب إلى النوم وسينهض بعد لحظة ويلبسها». (ص: 282)

هنا نراها تتحول من امرأة مثقفة وقارئة جيدة، ومحبة للحياة عبر القيام بالكثير من النزهات، إلى امرأة حمقاء، تعيش في الخيال، حيث تهمل أبنها يوتام، وبينما تستمر بغسل ملابس غيدي الميت، فإنها لا تقوم بذلك لابنها الذي على قيد الحياة، حيث يفكر عمير: «حقاً، لثياب يوتام رائحة عفنة». (ص: 282)

هناك انحلال وتفسخ للعائلة، فعدا عدم الاهتمام بولدهم الوحيد الآن، فإن كل واحد منهم يعيش في عالمه البائس، والقاتل.

عبد المحسن القطان خلال حضوره ورشة توظيف الرسوم المتحركة في التعليم.

«وجود الآخر الفلسطيني، يوحد اليهود ضد العدو المشترك،
وينسيهم تناقضاتهم الداخلية،
ويعطيهم المبرر لنعتهم بأقذع الصفات،
لتبرير سحقهم بوحشية، ولينعم ضميرهم بالراحة».
(الباحث أمين دراوشة)

على الرغم من الانفصال الجسدي والروحي بين والدا يوتام، فإنهما يتفقان أخيراً على شيء واحد، وهو الآخر الفلسطيني العربي، حيث يتفقان على أن العربي هو مصدر الشرور والآثام. فخلال حديثهما عن صادق الذي حاول الحديث مع العجوز اليهودية، فأثار فزعها، يقول روبين «هذه فضيحة». (ص: 263)

وترد الزوجة: «صحيح :كيف يمكن لعربي كهذا يتجول في حارتنا عده أشهر دون أن ينتبه أحد لذلك ؟». ويرد الزوج: «إنه قصور، ببساطة هذا قصور». (ص: 263)

هنا يعبر الكاتب على لسان الزوجين، عن النظرة اليهودية القاسية ضد العرب، فمجرد وجود العربي في حيٍّ يهودي، يعتبر جريمة، والسلطات لا تقوم بعملها كما يجب، إذ يجب القبض عليهم والتحقيق معهم وزجهم بالسجن، لأن ذلك أفضل. فالعرب لا يستحقون سوى السجن أو القتل. على الرغم من أن صادق لم يفعل شيئاً يستحق عليه العقاب.

الخلافات بين الزوجين تمحى مؤقتاً، لتترك العنان لهما، إلى لعن العرب وشتمهم، والمطالبة بمطاردتهم وكأنهم حشرات ضارة. فوجود الآخر الفلسطيني، يوحد اليهود ضد العدو المشترك، وينسيهم تناقضاتهم الداخلية، ويعطيهم المبرر لنعتهم بأقذع الصفات، لتبرير سحقهم بوحشية، ولينعم ضميرهم بالراحة.

ويضيف رؤوبين: «هذا يثبت فقط أنه يجب مطاردة هؤلاء المخربين في كل مكان في الدولة، في الضفة، في لبنان». (ص: 264)

عندئذ تتحدث أم يوتام عن موت الكثير من الأطفال في الطريق. ردّ رؤوبين: «لا مفرّ من ذلك، هذه الضحية التي يجب أن نضحي بها من أجل الأمن». فقالت له: إنها لا تظن أنه يؤمن بذلك، فاحتد وغضب قائلاً: «ماذا يعني ذلك». (264)

فالعرب جميعهم مخربون، وهي صفة معممة هنا، وتناقض الواقع، إذ ماذا عن أمن الفلسطينيين وحقوقهم؟ ومن يحتل أرض من؟ فإذا كان للاحتلال الحق في ذبح الشعب الذي يحتله، فلا يحق لهذا الشعب المقموع والمظلوم المقاومة؟

والكاتب يورد أقسى الكلام بحق العرب على لسان والد مجروح بقتل ابنه، ولكن ألا يكون السؤال هنا هو: ماذا ذهب غيدي يفعل في لبنان؟

والمحادثة السابقة، تلمح إلى قضية مهمة في المجتمع الإسرائيلي، وهي الحديث عن الآباء الذين يرسلون أولادهم إلى الموت. فحديث الأم مع زوجها، يدل على أنها تحمله مسؤولية ذهاب ابنه إلى الحرب، فهو من شجعه على الانخراط في الجيش، بحديثة الدائم عن هذه الحرب أو تلك، أو عن قطع السلاح وكيفية تفكيكها وتركيبها.

ويبث يوتام همومه لنفسه، فعلى الرغم من أنه ذكر لوالديه ثلاث مرات تاريخ مولده، فإنهما نسيا ذلك، وانشغلا بحضور رفاق غيدي من الجيش، حيث اتصلت أمه بأبيه، وعاد فوراً، ولم يرغب يوتام في الجلوس معهم لأنهم سيتحدثون كما كل مرة «كم كان غيدي يحب وحدته العسكرية، مع أنه كان في مساء كل يوم سبت يحبس نفسه في غرفته ويبكي لشدة إحساسه بالضيق، لأنه يترتب عليه العودة في الغداة إلى القاعدة العسكرية». (ص: 166)

وعندما يسمعهم يتحدثون حول رغبة غيدي الشديدة في الانخراط في الجيش النظامي، يتذكر يوتام أنه سمعه يقول لصديقته سارين «إنه حتى لو دفعوا له مليون دولار لن يبقى في الجيش يوماً واحداً آخر». (167)

يتطرق الكاتب كثيراً إلى أثر الجيش على حياة الشباب والشابات اليهوديات، وكيف أنه يجعل حياتهم جحيماً، ويسرق منهم حياتهم الطبيعية. فغيدي كان ينوي إنهاء خدمته، ولم يفكر يوماً بالانخراط في الجيش لو لم يكن مضطراً لذلك.

وفي يوم مشمس، فكر يوتام، الطلب من والدته الذهاب في نزهة، ولكنه فقد الأمل عندما رآها في الصالون «جلست تحت صوره

غيدي، بجانب شمعة غيدي، مع كتاب دفعه غيدي ... إلى جانبها كانت علبة محارم ورقية». وعندما سألها قالت له: اسأل والدك، ولم ترفع عينها عن الكتاب، وعندما سأل والده الذي كان «يجلس على سريرهما يقرأ جرائد السبت ويدخن، فتمتم، لا أعرف، اسأل أمك». (ص: 370)

هنا تصل الأمور إلى حدها عنده، ويقرر التنزه وحده، يخرج من البيت، يطرق باب عمير، فلا يفتح له الباب، فهو الآخر غارق في همومه. فسار طويلاً، واخترق الوادي، حتى وصل إلى بيت مهجور دون باب أو سقف ودخل إليه. وقال لنفسه «سأبقى هنا إلى الأبد ... فلا أحد يهمه أمري». (ص: 377) حتى عمير لم يعد يهتم بي منذ رحيل نوعا، لذلك سأبقي للسكن في هذا البيت.

بعد اكتشاف اختفاء يوتام، يتزعم والده فرق البحث عنه، حيث خرج الحي بأكمله للبحث عنه، وهنا يقول المؤلف أن المشاكل توحد الشعب، فالحي الذي يتخاصم ويتنافس فيه الجميع، أصبح عائلة واحدة، وكله يبحث عن يوتام المفقود.

وتكون المفاجأة عندما يتسلق رؤوبين شجرة عالية لعله يرى ابنه، لكن جسده أخذ يرتعد، وتساءل: «هل ترون بيتاً عربياً هناك؟ أو مجرد أنه يخيّل إليّ؟». (ص: 381)

وتأتيه الإجابة أنْ نعم، غريب «ليس من المفروض، أن تكون قرية هنا، هذا يعني أنه كانت هنا قرية، ولكن منذ زمن طويل لا توجد، هيا يقول، لوح بالجذوة وراح يركض باتجاه البيت بكل قوته». (ص: 381)

نرى هنا رؤوبين شخصاً يكابر، ويقنع نفسه بأحقية اليهود بالأرض، ويبدي اندهاشه لعثوره على بقايا قرية عربية دمرها الجيش الإسرائيلي في 1948. فمنطقهم أنه ليس للفلسطينيين الحق بهذه الأرض، وأنهم لا يستحقون سوى الاحتقار والازدراء. ولكن الحق لا يمكن محوه، حتى لو تم تمويهه أو دفنه، فلا بد من أن يأتي يوم ويظهر فيه.

ويعود يوتام، ويسأل عمير عمته عن حالته، فتجيب: «كان محظوظا جداً، فإن ذلك البيت حيث وجوده تابع لقرية عربية كانت هنا ذات مره، يقولون إن العرب ما زالوا يتجولون هنا مع مواشيهم، لا أريد أن أفكر ما الذي يمكن أن يحدث له فيما لو اصطدموا به هناك، والآن خاصة في ظل التفجيرات وما إلى ذلك». (ص: 385)

الآخر الفلسطيني لا يريد أن يتلاشى، أو يرحل وحسب، هو موجود على أرضه، ويرفض الذوبان والرحيل فهم على الرغم من كل ما جرى لهم ما زالوا يتجولون هنا. وتلمح عمة يوتام إلى أن العرب لن يتوانوا عن قتله لو وجدوه.

لنعد إلى الصفات الملصقة بالعرب منذ قيام إسرائيل بأنهم رعاة، وعابرو سبيل، وقتله، لكن المجتمع الإسرائيلي خائف ومرتبك، فصراعه مع الآخر الفلسطيني مستمر ويزداد ضراوة.

وللخروج من دائرة الصراع والخوف، يفكر رؤوبين الجندي السابق، وقد أحس بالخطر يحدق بابنه الآخر، وبعد أن بكى بحرقه، قرر «أن يأخذ يوتام ويهربا من هنا». ويتساءل «ولكن إلى أين يمكن أن يهربا؟ إلى أين؟». (ص: 388)

ويحاول انتهاز فرصه مناسبة لإخبار زوجته على ما عزم عليه، فعندما يطرح عليها فكره القيام بنزهة تقول له: «في كل مكان في هذه الدولة، كل شيء مليءّ بالموت». فرد: «إذن لنسافر». أجابت باندهاش: «ماذا؟ خارج البلاد؟ لنسكن هناك؟ هل جننت؟». (ص: 417)

وبعد أيام يرتبان حقائبهما استعداداً للهرب.

ويخبر يوتام عمير، أنه وأمه سيسافران إلى أستراليا، وسيلحق بهم الوالد بعد ترتيب أموره. وعندما يسأله يوتام عن أستراليا تكون إجابة عمير عميقة ومعبرة عما وصل إليه الوضع في إسرائيل حيث الصراع والحروب، فيقول: «بلد هادئ، صامت، أناس لطفاء، أكثر لطفاً من الأميركيين، دون حروبات، طبيعة غنية». (ص: 435)

ونرى لقطة معبرة عندما تعود نوعا إلى عمير ويقيمان حفلة، تقوم والدة يوتام التي لم تكن قادرة على فعل شيء حتى غسيل الثياب بالرقص. فهل عادت لها حياتها السابقة بعد قرار العيش –الهرب– إلى أستراليا.

من ورشة عمل «توظيف الرسوم المتحركة في التعليم».

«هل تشعر أنك تريد أن تهرب طيلة الوقت؟».
(الرواية، ص: 300)

مودي من شلة أصدقاء عمير بطل الرواية، بعد إنهاء خدمته في الجيش، يقرر السفر والتمتع بالحياة، التي يفتقدها في إسرائيل، ويسافر إلى أميركيا اللاتينية، ويقضي أيامه في التنقل بين الدول والبحث عن المتعة والمغامرة. ولكن وجوده في السابق في الجيش، يبقى مسيطراً عليه لدرجة كبيرة، ووجوده في الرواية موضوع أساسي، حيث يتواجد عبر رسائله إلى صديقه ليخبره عن رحلاته. فهو يمثل اليهودي الذي يختار السفر والرحيل مصمماً على عدم العودة إلى إسرائيل.

وحتى نرى تأثير خدمته العسكرية عليه، نقرأ في إحدى رسائله عن تطويره لنظرية جديدة، تتحدث عن أن الإنسان لديه ثلاثة أوضاع وعي رئيسية وهي، العسكرية، والمواطنة، والسياحة، حيث شكلها على المحور التالي: (عسكريّة ... مواطنة ... سياحية). (ص: 27)

فالعسكرية تعني أنه عند عودتك من الجيش وتبديل زيك العسكري، وتلبس البيجاما، تشعر بالراحة، والاسترخاء وخروج الهواء جميعه من صدرك، ولكنك تبقى تخشى «أن يصادر أحدهم –قائد الفصيل، أو الكتيبة، أو الشرطة العسكرية– حريتك؟». ويضيف إن الفرق بين العسكرية والمواطنة، هو علمك بأنه «لا توجد أية قوة خارجية تستطيع أن تتغلب عليك، أنت، وفقط أنت، من يحدد ماذا تفعل ... الآن». (ص: 28)

وكما رأينا، فالمؤلف، وعلى لسان أكثر من شخصية، ينتقد الجيش ويصب كل غضبه عليه، لأنه يسيطر عليك ويفقدك الإحساس بالأمان، وهو ما يتناقض مع الكثير من المؤلفين والمفكرين الذين يعتبرون الجيش القوي، هو ضمانة بقاء إسرائيل، لكن على حساب الشعور بالأمان والحياة المدنية وفقدان الحرية، فنحن نتحدث عن دولة كل الشعب فيها يتم تجنيده وتدريبه، لدرجة أنك لا تجد شخصاً في إسرائيل لم يخدم في الجيش.

لذلك حتى لو أنهيت خدمتك، فإن شبح الحياة العسكرية يبقى مسيطراً عليك في حياتك المدنية، ويوضح لنا مودي هذا الأمر، ويبين لنا الفرق بين المواطنة والسياحة، حيث يقول إنه الفرق نفسه «لكنّه داخليّ، لأنّه حتى بعد أن خرجت من بوابة قاعدة الاستيعاب والتصنيف وانتقلت نهائياً وبشكل حاسم إلى وضعيّة «المواطنة»، ستظل خاضعاً لرجال الشرطة، الذين في داخلك. خاضع لطبعك كما يعرفه الجميع». (ص: 28)

وكما كل شخصيات الرواية، يعاني مودي من خطب داخلي، يجعله يفكر عند صعوده إلى مكان مرتفع في القفز، فيقول: «الشوق إلى القفز كلما وقفت في مكان عالٍ ... تتملكني رغبة قوية في القفز إلى أسفل. لا أن أحلق، ولا أن أطير. أن أقفز فقط، ثم أتحطم». (ص: 203)

ويضيف «أنا أحب الحياة، ولم تخطر في ذهني ولو مرة واحدة فكرة من هذا القبيل، حتى في أسوأ المواقف في خدمتي العسكرية ... اقتلني إن كنت أفهم ذلك. ما من شك في أن لهذه الظاهرة اسماً في علم النفس، أليس كذلك؟». (ص: 204)

ما من شك أن كل شخصيات الرواية تعاني من الخوف والقلق، وأنها بشكلٍ أو بآخر قد فكرت في الانتحار، والغريب أن كل ذلك مرتبط ارتباطاً وثيقاً في الخدمة العسكرية. فهل ذلك سبب الرعب والفزع من دنو الموت؟ فهذا الأمر حصل مع غيدي الذي قتل في لبنان، أم أن الأمر شيء داخلي يرفض الخروج عبر الرواية وهو الشعور بارتكاب خطيئة ما، تجعل صاحبها يكفر عن ذنبه في الهروب إلى الموت الطوعي من أجل الخلاص؟

يحدثنا مودي في رسائله عن الأشخاص الذين يلتقيهم في حياته الجديدة، وعن إعجابه بامرأة تشكيلية اسمها نينا، وعن تواصلهما وعلاقاتهما، وعن حبه لها على الرغم من أنهما لا يعرفان لغة بعضهما البعض، بل تطورت علاقاتهما إلى ممارسة الحب. هذا التواصل تم بالاستمتاع بالموسيقى الداخلية لبعضهم. هنا يحدثنا الكاتب عن إمكانية التواصل والاتصال بين الشعوب على الرغم من العوائق، ولكنه لا يقترب أبداً من الحديث عن أن الشعب الفلسطيني واليهودي لا يمكن لهما أن يلتقيا عبر الممارسات الرومانسية، فالواقع الذي يعيشه الفلسطيني قاسٍ ومرعب، يفقده الإحساس بالأمان وحتى حقه بالحياة، فالتواصلٍ لا يمكن أن يكون بين شعب يحتل أرضاً لشعب آخر، ويظن أنه شعب أرقى، ونظرته إلى الآخر الفلسطيني دونية، تبيح له ممارسة كل أشكال العنف والقتل ضده.

يفترق مودي عن نينا بسبب سفرها، فيشعر بالغربة والوحدة ويقول «وبدا لي الجميع أعداء خطرين، كذابين». (ص367-368)

هكذا ينظر الشعب اليهودي إلى الأغيار، لذلك لا يمكنه الثقة بهم، وفي لحظة تأمل وهو مستلقٍ على السرير يفكر مودي بعائلته «وفجأة

تخيلت جميع أفراد عائلتي يجلسون لتناول طعام العشاء بدوني، فرغبت أن أكون هناك». (ص: 368)

وفي رسالته الأخيرة يقرر العودة نهائياً، مخاطباً عمير قائلاً إنه يريد أن يسبح أكثر وأنه ملّ «إطلاق سهام مسمومة نحو الآخرين خوفاً من أن يصيبني أحد، أريد أن أواجه الناس بقلب مفتوح، ما الذي سيحدث!». فأنا «مللت من أن أكون مضغوطاً». (ص: 466)

يقترب الكاتب نبو من إيجاد الحل للخوف والفزع الذي يشعر به الشعب اليهودي، فيكفي حروبا وصراعات، وعلى الشعب أن يواجه الآخرين بقلب مفتوح بعيداً عن الأحكام المسبقة، وإلا ظل الشعب مضغوطاً يعاني عدم الاستقرار وفقدان الأمان، فقد جربت إسرائيل القوة والعنف ونظرت إلى الآخرين كأعداء يتربصون بها، فما الذي سيحصل إذا غيرنا نظرتنا للآخر وفتحنا له قلوبنا؟

ولا يجيب الكاتب عن التساؤل، وكأنه يعتبر ذلك حلماً بعيد المنال.

وفي النهاية، فإن الكاتب، يتفق مع كتاب آخرين وبالذات أ. ب. يهوشاع على أن المنفى ليس حلاً للشعب اليهودي، لذلك نرى الكاتب يعيد مودي إلى بيته لأن حنينه إلى بلده طغى على كل ما عداه.

الأنا العربية الفلسطينية بين توكيدها وضياعها

«بناتنا أكثر إثارة، ...
فمعهن هناك مكان للخيال،
وليس كما اليهوديات،
اللواتي يتجولن شبه عاريات».
(العامل سمير، ص: 45-46)

الأنا الفلسطينية والآخر اليهودي

ينظر الفلسطيني إلى الشعب اليهودي على أنه اغتصب أرضه وطرده منها. فهو يمثل العدو اللدود للشعب الفلسطيني، ويتصف هذا الشعب حسب الأنا الفلسطينية بالبطش والقسوة والعنف والمكر والخداع.

وبعد السيطرة الإسرائيلية على أراضي فلسطين كافة، توجهت السياسية العامة الإسرائيلية إلى دمج الاقتصاد الفلسطيني الهش بعجلة الاقتصاد الإسرائيلي القوي، وجعله تابعاً له، ومستهلكاً لمنتوجاته، ومنع نشوء أيٍّ صناعة فلسطينية قادرة على الصمود بوجه الغول الاقتصادي الإسرائيلي. فتفشت البطالة بين أفراد الشعب الفلسطيني، واستغلت إسرائيل الأمر بفتح ذراعيها لهم ودمجهم في سوق العمل الإسرائيلية، وعملوا عمالاً بأجرة منخفضة في أراضيهم المسلوبة.

وعن استغلال العمالة الفلسطينية يحدثنا صادق قائلاً: «مسموح لنا أن نأخذ استراحة في اليوم. لنصف ساعة. فإذا أخذنا أكثر من استراحة سيصرخ رامي علينا ويخصم من الأجر، فنحن بالكاد نأخذ مقابلاً». (ص: 45)

ورامي هو متعهد الشغل، الذي يجلب العمال الفلسطينيين إلى إسرائيل، ويوفر لهم فرص العمل.

وبعد أن حدث الاتصال الأول بين صادق والعجوز اليهودية، ساكنة بيته القديم، قال رامي مخاطباً صادق، إذا عدت إلى هناك مرة أخرى، فعليك أن تنسى المبالغ التي تستحقها، ويجب أن تتوقف عن هذا الأمر.

وصادق لا يحب رامي، ويقول عنه إنه يتفاخر بأن «يدمج في كلامه بين العربية والعبرية كي يظهر أنه رجل. ولا أحد يصححه مع أنه يرتكب الكثير من الأخطاء كلما بدأ الحديث». (ص: 223-224)

رامي هنا نموذج لكثير من الشخصيات الفلسطينية مستلبة الهوية، والضائعة، حيث يعاني من انقسام في الهوية، ويحس بالقرب من الإسرائيليين أكثر من العمال العرب. ويشعره تحدث العبرية بأنه رجل، وأفضل من الآخرين، ويحاول جاهداً التشبه باليهود، فيخلط كلامه ببعض الكلمات العبرية، ولكنه لا ينجح في الحديث بشكل مقبول، ما يثير استهزاء الآخرين، وحتى وإن لم يظهروا ذلك نظراً لحاجتهم له.

ومن الموضوعات التي تثير نقاش الشباب الفلسطيني، موضوع المرأة اليهودية، فيعبر العامل سمير عن رأيه بها قائلاً: إنهن مكشوفات،

وبالتالي لا مجال للخيال معهن، بعكس المرأة العربية. لذلك فـ «بناتنا أكثر إثارة، ... فمعهن هناك مكان للخيال، وليس كما البنات اليهوديات، اللواتي يتجولن شبه عاريات». (ص: 45-46)

لا ريب أن الاختلاط بين الشعبين، يحدث نوعاً من التأثير؛ سواء أكان إيجابياً أم سلبياً، والتأثير الإسرائيلي أقوى لأنه نابع من قوة الدولة الإسرائيلية، وكذا محاولات إسرائيل التأثير ثقافياً في المجتمع الفلسطيني، كي تقنع شبابه بنموذجها، ولكن ضمن حدود يجب عدم تخطيها.

والفلسطيني يعرف هذه الحدود، فعندما حاول صادق الحديث مع العجوز اليهودية، التي صرخت به: لص، لص، ففر هارباً إلى أصدقائه، قال له أمين: «هل أنت مجنون؟ ... هل تريد أن نتورط جميعنا بسببك؟». وقال له نعيم: «دخيل الله، إذا سمع المتعهد رامي بما حدث فسنخسر كل شيء». (ص: 133)

العرب هنا يخافون الاحتكاك باليهود خوفاً من قطع رزقهم في العمل بأراضيهم المسلوبة. وعلى الرغم من أنهم يعملون بأقل الأسعار ودون حقوق، فلما تسلق صادق منحدراً قرب البناية التي يعمل فيها، لينظر وليتأكد من أن ذاك هو بيته القديم، كاد يسقط، فقال: «لحسن الحظ أنني لم أسقط، لأنه لا تأمين لدينا». (ص: 132)

يناقش الكاتب في الرواية أموراً كثيرة تتعلق بالشعب الفلسطيني، وهنا يتطرق إلى استغلال أرباب العمل اليهود للعمال الفلسطينيين، فهم يعملون ساعات طويلة وبأقل الأجور، ودون تأمين من إصابات العمل. وهذا واقع لا يمكن نكرانه إذ أن الكثير من العمال الفلسطينيين فقدوا أعضاء من جسدهم ولم يتلقوا تعويضاً لعدم وجود تأمين يضمن حقوقهم.

ومن الشخصيات العربية التي ظهرت في الرواية، شخصية ثانوية، ولكنها عبرت بقوة عن أفكارها ومبادئها. ونقصد شخصية كامل ساقي القرية العربية المحتلة، فعند تهجير الفلسطينيين العام 1948، طلبت أم صادق من ابنها، وكان طفلاً، أن يذهب إلى بيت جارهم سلمان السعدي ليحضر وعاء لحفظ المياه، وفي طريق عودته رآه كامل، فأمسكه من يده. ويقول صادق عن هذه الذكرى أنه «غرس أسنانه في لحمي وصرخ فيّ قائلاً: إلى أين تهربون؟ إلى أين؟ من يتخلّ عن أرضه فلا حياة له، لا حياة له». (ص: 225)

وأثبتت الأيام أن نبوءة كامل صادقة.

جانب من لقاء عبد المحسن القطان وعمر القطان بعدد من المعلمين والفنانين بمقر المؤسسة في رام الله.

اللاجئون الفلسطينيون شوكة في حلق إسرائيل

«يموت بنو البشر كما يموت الشجر
وتبقى الأرض إلى الأبد».
(أم صادق، ص: 182-183)

في بداية الرواية، يطالعنا الكاتب ببعض الصفات النمطية والملتصقة بالعرب، والتي يحفظها الشعب اليهودي عن ظهر قلب، العرب اللصوص، المخيفون، شكلهم الذي يوحي بالعدوانية ... .

ثم ينتقل ليظهر لنا الشخصية العربية المحورية في الرواية، صادق، والحقيقة أن الكاتب قدم العربي بشكل أفضل بكثير من الأدباء اليهود الآخرين.

في الرواية نرى العربي شخصيةً لها كيانها وأحلامها وذكرياتها وحنينها الذي لا ينضب إلى بيتها القديم في القسطل.

ويعبر صادق عن نفسه بكل حرية، ولا يتوانى أبداً عن المواجهة ساعة يحس أنه على حق، فالخوف والجبن من الصفات التي اتصف بها العربي في الروايات اليهودية، ليس لها هنا وجود. كما يمتاز بذاكرة جبارة تأبى النسيان.

عائلته هجّرت من بيتها، وطردت إلى إحدى مدن الضفة الغربية، ويعمل كأغلب الفلسطينيين في قطاع البناء في إسرائيل، عجوز لكنه صلب، ويقول له زملاؤه في العمل إن «لديك قوة كقوة الشباب». (197) وهو عامل حريّف في عمله.

والده كان رجلاً عاملاً وهادئاً وخجولاً قبل طردهم وهروبهم من بيتهم، والآن هو رجل كبير السن وهش، أما والدته فامرأة قوية وصلبة، لا تلين، دائمة الحديث عن القائد الراحل عبد الناصر، وعن بيتها الذي لا بد أن تعود إليه إذ ما زالت تلبس مفتاح بيتها الصدئ منذ عشرات السنوات وتعلقه كقلادة ثمينة في عنقها، فهي ليست كالنساء العربيات الأخريات اللواتي لا يتكلمن، ويعشن في ظل أزواجهن، وصادق يحيرنا بذلك قائلاً: «أصبح والدي إنساناً ضعيفاً كئيباً منذ أن أخذوا أراضيه منه، واضطر إلى الخروج بحثاً عن عمل، وصارت أمي هي التي تتحدث بدلاً منه». (ص: 97)

وأم صادق إنسانة مثقفة، كانت تتابع خطابات عبد الناصر، بلهفة مثلها مثل الكثير من الشعوب العربية، كانت لديها الآمال العريضة بإمكانية هزيمة إسرائيل، والعودة السريعة إلى البيت القديم، ولكنها الآن تحدث أبناءها عن انكسار الرجال وبكائهم بعد هزيمة 1967، كل الرجال حتى الأشداء منهم كناجي حسين الذي أمضى عشر سنوات في سجن عربي، وحسام مغنية بطل الملاكمة في رام الله، وحتى أبوكم البطل –وهنا يخفض أبو صادق بصره–وتضيف: «ليس هناك ما تخجل منه يا حبيبي، هكذا هي الحياة، عندما يمنون الإنسان بالأمل، ثم يسلبونه إياه دفعة واحدة يكون وقع ذلك في النفس أصعب مما لو لم يمنحوه شيئاً أصلاً». (88)

كما أنها ما زالت تتابع الأحداث السياسية، ونراها تتحدث عن رابين بعد اغتياله «هذا الـ«رابين» الذي أطلق جنوده النار فوق رؤوسنا عام ثمانية وأربعين، رابين الشرير الشيطان، وبدلاً من أن أكون سعيدة، بدلاً من الرقص في الشوارع والتصفيق، أجد نفسي حزينة ... ما العمل؟ ... وما الذي سيحدث الآن؟». (89)

وكأن الكاتب يقول على لسان أم صادق، إن السلام في هذه الأرض بعيد المنال، فهناك قوى خفية تعمل على استمرار الصراع، مع أن كل ما تطلبه هو ببساطة العودة وعائلتها إلى بيتها في القسطل.

وهي مصممة على ذلك، فبعد احتلال الضفة وغزه في 1967، طفق اللاجئون يحاولون زيارة بيوتهم في حيفا ويافا والقسطل ... أما عائلة صادق فلم تذهب، فأم صادق وقفت كالصخرة أمام أولادها وزوجها صارخة فيهم، قائلة: «إنها لا تريد أن ترى. لا تريد أن تعرف. لا تريد أن تسمع». (ص: 96)

وأعلنت لهم وعيناها تقدحان شرراً، أنها لن تعود إلى بيتها إلا للإقامة فيه، وتضيف: «أنا لن أكون كهؤلاء الفلاحين الذين يقفون كالشحاذين ينتظرون أي يهودي ليدعوهم للجلوس في الصالة واحتساء القهوة في البيوت التي كانت لهم». (ص: 96) ثم توجه كلامها إلى زوجها «أنت أيضاً، إياك أن تصحب الأولاد إلى هناك، وإذا فعلت ذلك فعليك البحث عن امرأة أخرى». (96)

هذه الأم التي تشبه الأرض في صلابتها وطيبتها وعنادها ووفائها وذكرياتها، كانت لا تفوت مناسبة إلا وتذكّر جميع الحاضرين بضعفهم وقلة وفائهم، من خلال سردها للقصص، وبخاصة عندما يتجمع في بيتها كل أفراد الأسرة الممتدة من الأعمام والعمات، فما أن يتذكر أحدهم شيئاً كالقطايف التي كانت تعدها الجدة، ويتحدثون

عن البيت القديم، حتى تأخذ الكلام وتذكّرهم بالكلب الأسود، وتبدأ بسرد قصته، كيف أنه في ليلية الهروب من القسطل، رفض أن يترك البيت وأطلق الأصوات الحزينة، حتى بعد أن ربطه أبو صادق وشدّ وثاقه، كانت عيناه ترجوان أن يعيده إلى القرية، ومشى مع القافلة «بعيني من خدعه أعز أصدقائه». (ص: 97) وعندما توقفت القافلة للاستراحة، تمكن الكلب من الفرار والعودة إلى القرية. وهنا تقول بصوت متهدج: «حتى الكلب كان أكثر منا ولاء للبيت وتمسكاً به. حتى الكلب!». (ص: 97) فيطأطئ الجميع رؤوسهم خجلاً.

صادق التي شاءت الصدفة أن يعمل لدى عائلة مدموني اليهودية في بناء بيتهم، وقع نظره على بيت من طابقين مقابل عمله، وقال لنفسه: «ها هو البيت، أنا متأكد، أو لعله ليس هو؟». (ص: 35)

الجزء الأسفل من البيت جديد، ولكن في الأعلى الطابق الثاني «هذه طريقة بناء قديمة، حجر على حجر كما كانوا يبنون في القرية». (ص: 35)

نسى صادق سنوات كثيرة في ذلك البيت، فقد هجّر منه في سن الرابعة أو الخامسة. لا يعرف بالضبط «فالجرة التي كانت شهادة ميلادي في داخلها تركوها وراءهم عندما هربوا. ومنذ ذلك الحين نسيت كل شيء». (ص: 46)

ولكنه عاد وتذكّر كل شيء، عندما زجّ به في السجن ستة أشهر بتهمة «المساعدة في عملية تخريبية».

وهنا أرى الكاتب نبو يتدخل، ليزيح عن صادق صفة المقاوم، فهو شخص مسالم، يعمل في بناء بيوت اليهود، حتى يكون مقبولاً لدى القراء اليهود. فشخصية الفلسطيني المقاوم ما زالت مرفوضة لدى أطياف الشعب اليهودي كافة.

لم يشارك في العملية عن قصد، فقد نقل في سيارته شاباً أراد طعن جندي في بوابة الإدارة المدنية، ولكن المخابرات الإسرائيلية كانت تعلم بالأمر، وكانوا في انتظاره، واعتقل صادق. وفي التحقيق يقول إنهم لم يصدقوا أقواله. «فما الذي يجعلهم يصدقون أقوال عربي. ضربوني، هزّوني، لووا يدي، ثم أصابعي. ولكن لم تكن لديهم أدلة». (ص: 46)

فالعربي يتصف بالكذب والخداع، وحكم عليه بنصف سنة، ويحدثنا عن سجنه قائلاً: «مرت عليّ كأنها مئة سنة ... التفكير بزوجتي، وأبنائي، والوقت، الوقت الذي لا ينقضي في السجن». (ص: 46)

جانب من زيارة عبد المحسن القطان لمقر المؤسسة في رام الله.

وتعلم العبرية في السجن على يد مصطفى عالم من أبطال الانتفاضة الأولى، الذي يقضي حكماً بعشرين سنة، وكان يجيد اللغة العبرية أحسن من اليهود.

هنا يقر المؤلف أن العربي الفلسطيني، قادر على التعلم والاستفادة من وقته وظرفه الصعب في السجن في تعلم أشياء تنفعه في المستقبل. كما يتحدث بشجاعة عن عمليات التحقيق اللاإنساني، والوحشية في معاملة الفلسطيني في سجون الاحتلال، وهذه نقلة لا بأس بها في الأدب الإسرائيلي. فمنذ نشوء الدولة، لم يخرج الأدب الإسرائيلي عن تصوراته النمطية حول الشخصية العربية، وإلصاق كل الصفات السيئة بحقهم لتبرير استخدام العنف ضدهم وطردهم من أراضيهم.

إذن، تعود الذكريات القديمة بكل تفاصيلها إلى صادق، ففي السجن حيث لا شيء تفعله، تبدأ بالتخيّل. وترى الجن، وتسمع أصوات، وتشعر بالخوف، فتباغتك ذكريات منسية (ملامح صبيّ كان صديقك ... والمطبخ الصغير المليء بالطناجر، المرحاض الذي ينبغي على والدك أن ينحني ليدخله ... البلاطة المكسورة في الزاوية اليمنى ... والقوس في النافذة، الذي يشبه كثيراً قوس النافذة في هذا البيت». (ص: 47)

ينظر إلى البيت، ويستغل الاستراحة في العمل، من أجل الذهاب إليه، يحاول أن يقرأ اسم مالكه الجديد، تخرج عليه «امرأة بعينيّ نمرة». (ص: 47)

تسأله عما يريد، فيقول إنه يبحث عن شربة ماء. ارتبك «ولم أرَ ما أفعل بعينيّ، فغرستهما في حذائي، في بقع الكلس». (ص: 48) بعد أن قالت له سيما: أنت من عمال مدموني، لماذا لا يقدم لكم الماء؟

نرى قوة الشخصية اليهودية في هذه المحادثة، مقابل ضعف الآخر الفلسطيني، الذي يتوتر ويخاف في مواجهة الأنا اليهودية التي تحظى بعيني حادة.

عندما يعود إلى عائلته، يود لو يخبر أمه، أنه رأى البيت ولكنه يتردد «هل أحكي لها أم لا؟ أين كرامتك؟ سوف تصرخ، كيف ذهبت وبنيت البيوت لليهود في قريتنا؟ ألا تخجل؟ أنت تملك كوشانا بهذه الأرض، هل تعلم؟ إنها أرضك، هل تعرف؟ هكذا ستقول. فلماذا أحكي لها إذن». (ص: 98)

ولا يتكلم معها حول البيت، ويبرر لنفسه الأمر، بأنه غير متأكد منه، فهو لم يره من الداخل بعد. ويصمم على دخول البيت بطريقة ما، وعندما ارتفع البناء كفاية، استطاع أن يرى من خلال أغصان الشجر، بعد أن صعد على منحدر، باب حديد ثقيلاً في جوانبه فتحات، كما يذكره بالضبط.

ورأى العجوز اليهودية، التي تسكن البيت، في الشارع تحمل أكياساً، وبشكل لاإرادي ركض نحوها، راغباً في الطلب منها أن تسمح له بالدخول ولو دقيقة، ولكنها خافت منه وأوقعت أكياسها، وعندما حاول مساعدتها أخذت تضربه صائحة (لص، لص ... وفي تلك الأثناء بدأت عيون الناس تطل علينا من النوافذ المحيطة بنا». (ص: 133) فتركها وهرب. قبل أن يتمكن الجيران من الوصول و«الاحتفاء» به. (ص: 133)

يعود ليجلس مع أمه، يرغب في أن يقول لها، إنه رأى البيت، ولكنه كالعادة يتراجع، فهو يعرف أنه «كلما ذكر هذا الدائن يصيبها المرض على الفور، مضى أربعون عاماً وما زالت المهانة في قلبها رطبة كما التربة بعد المطر». (ص: 95)

ومع ذلك، ما زالت ترفض ما حدث، وما انفكت تحذرنا نحن أبناءها من النسيان، ومن الفرار. فأحياناً، وبعد عملية تفجيرية، أتذكر ابن عمي منير الذي سافر لدراسة الطب في إيطاليا، وأحب وتزوج فتاة إيطالية ثرية، ومن خلال صوره التي يرسلها إلينا، يظهر أن له «بيتاً كبيراً وحديقة وبركة، كما يظهر وقد حلق ذقنه تماماً. ومع أنها مجرد صورة، إلا أن بإمكانك أن تشم أن هناك رائحة عطر ثمين». (ص: 193)

ولكن أفكر بأمي أيضاً، التي طالما قالت عن منير إنه: «خائن! ثم تقول: على المرء أن يموت في مسقط رأسه». (ص: 193)

ويخبرنا صادق أنه في إحدى المرات، تفاجأ بأمه، تضع مفتاح البيت القديم والصدئ على كرسي صغير، وهي «تنزله عن عنقها للمرة الأولى خلال ثمانية وأربعين عاماً، حتى في الحمام لا تخلعه». (ص: 180-181)

ولكن صادق لا يمد يده إليه، بل تشجع وأخبرها عن البيت، ولم تصرخ، ووصف لها كيف يبدو من كل الجوانب، ولم تطرده، بل أخذت تضيف بعض العلامات كي يكون واثقاً منه «توجد أمامه عدة شجيرات تين، وخلفه شجره رمان». (ص: 181)

وتتابع قولها له، إنها ستحكي له قصة، لم تحكها سابقاً بسبب الخجل، ولكن وقد أوشك أن يصبح شيخاً، وأنها لا تعرف إلى متى ستعيش، ستقول له، وشرعت تسرد عليه أحداثها، ولكن ليس بصوتها القوي عندما تحكي القصص الذي يجعلك تنتبه وتصغي، بل بصوت هادئ، وحزين، أخبرته أنه لما جاء اليهود ليطردونا، لم يكن لدينا الوقت لأخذ أشياء كثيرة من بيوتنا، فالجنود تمركزوا على التلال المحيطة، وقصص أحداث دير ياسين «تنتقل كالنار في الهشيم. سمعت عن

دير ياسين، أليس كذلك؟ قال الجميع إن ما حدث في دير ياسين سيتكرر هنا في القسطل، فسيطر علينا الخوف». (ص: 181)

أخذنا ما استطعنا حمله على الحمار ورحلنا، وبعد ساعات عدة، تذكرت أنني نسيت شيئاً مهماً في البيت و»أردت العودة، كان يجب أن أعود ولكن الجنود كانوا يطلقون النار فوق رؤوسنا ويصرخون: هيا إلى عبد الله. وقال أبوك: لا بأس! نحن في طبيعة الحال سنعود بعد أسبوعين إلى القرية». (ص: 181) وبقي ذلك الغرض في جدران البيت.

هنا يتطرق المؤلف باقتضاب لمجزرة دير ياسين، التي ارتكبتها العصابات الصهيونية بتخطيط وسبق إصرار من أجل زرع الخوف والرعب في نفوس الفلسطينيين، وهذا ما حدث بالفعل حيث أدت المجزرة إلى هروب عشرات آلاف الفلسطينيين من ديارهم خوفاً من الذبح.

وعندما سألها صادق مندهشاً، ما هو الغرض؟ وضعت كف يدها على يده، وأخبرته أنها لا تستطيع أن تحكي له، وأنه سيرى بنفسه و«ارتجف كف يدها فلففته بيدي الأخرى فلقت يدي الأخرى بيدها الأخرى. هكذا جلسنا بضع دقائق صامتين وأيدينا الأربع الموضوعة واحدة فوق الأخرى تصنع ما يشبه البرج». (ص: 182)

وبان الصبح، فتناولت المفتاح الصدئ، وأعطته إياه، وقالت له أذهب إلى البيت، أذهب إلى هناك بحماية الله، ولا تنسى الصلاة على روح العزيز «عن روحه لا تزال تتجول هناك وتسبب الجنون لليهود». (182)

يقال إن رجلاً رفض مغادرة القرية، وبقى هناك وحدة للقتال، وأن روحه ما زالت تحوم في القسطل مسببة الجنون لليهود.

«أذهب وأحضر التين الأسود عن الشجرة. أذهب واسكب الشيد حول المسجد كي لا يدخله النمل ... وعندما تصل البيت أدخله ولا تخجل! إنه بيتك). (182)

أما إذا اعترض أحد اليهود، فأريه هذا، ذهبت وأحضرت كيسا من الخزانة، وتناولت منه الشهادة القديمة، ومدتها له قائلة: «هذا الطابو. ارتجفت يداها ... ثم أردفت تقول: يموت بنو البشر، كما يموت الشجر وتبقى الأرض إلى الأبد». فأجابها: «مزبوط». وقام بتنظيف الغبار المتراكم على الشهادة بكمه، وسألته: (هل ستحتفظ بها جيداً، فهمت؟). (ص: 183)، وهددته بأصبعها.

أجاب: «أعدك بذلك، ووضعت يدي على جيب القميص». (ص: 183) فقالت بصوت خفيض: «فوق الباب، تحت السقف، يوجد حجر واحد غير ثابت. ابحث عنه ... فهذه مهنتك ... وستجد خلف الحجر كيسا فيه الكثير من ورق الجريدة الملفوف. وفي ورق الجريدة شيء لي. شيء لأمك. أحضره لي يا صادق إن أمكنك ذلك. ورعاك الله». (ص: 183)

هذا الحوار العاطفي والقوي بين الأم وابنها، حيث تحثه على استعادة الحق المغتصب، يمثل الذروة في الاعتراف بالحق الفلسطيني على الرغم من أن الحديث يتم على لسان عجوز فلسطينية، حماية للكاتب من غضب اليهود أو أن الكاتب ما زال غير مقتنع بهذا الحق، فأورده على لسان شخصية فلسطينية.

صمم صادق على دخول البيت القديم، ولم يحل دون ذلك سوى حدوث عملية تفجيرية، فانتشرت الحواجز العسكرية كالعادة ومنعت العمال العرب من الوصول إلى عملهم. غضب، ولكنه قال لنفسه: «شويّ شويّ ... تحلّ بالصبر يا صادق. انتظرت خمسين عاماً، فما يضيرك لو انتظرت أسبوعاً آخر». (ص: 198)

الفضول يكاد يقتله، وتساءل عن ذاك الشيء الذي تركته أمه، ويهمها أن أحضره لها.

وقرر «عندما يعود العجوزان إلى البيت، سأدخله واكتشف ذلك السر، ولا يهمني ما سيقولان وما سيقوله رامي -متعهد العمل- فليطردني إن شاء. وليقتلني إن أراد». (ص: 227)

وهكذا يحمل مطرقته وأزميله، يطرق باب بيته القديم، ويدلف إلى داخله على الرغم من محاولات سيما منعه، وجينا التي أحضرت مضرباً لتضربه به، ولكن أفرام نهض عن الكنبة واتجه نحو صادق، تحسسه ثم نظر إليه بعينين حالمتين، وقال: «نيسان، ابني، أهلاً وسهلاً بك، ثم يعانقه». (ص: 235)

لم يفهم صادق شيئاً، وقال اسمي صادق لا نيسان، وتشرح له جينا زوجة أفرام: «نيسان هو ابننا الأول الذي توفى وعمره عامان، يوم دخلنا هذا البيت. وهذا «أفرام» زوجي، يسكنه الجن في الأسبوع الأخير فصار يتوهم أن نيسان حي». (ص: 236)

وتتدخل سيما وتهدد بإبلاغ الشرطة، وصادق يتساءل بحيرة: «كيف يخرجونني منه وهو بيتي؟». (ص: 237) وطفق يلوح بالكوشان، وتذهب سيما باتجاه الهاتف، فيمنعها أرام بالقوة، ويهدد بذبحها بالسكين وذبح نفسه أيضاً. حدق بالعامل العربي وسأله: «هل تريد أن تشرب شيئاً؟ هل تشرب القهوة ...؟». ويرد: «بدون سكر». ويبتسم أفرام قائلاً: «كأبيك تماماً». (ص: 237)

يلجأ الكاتب إلى علم النفس لينقذه، فيصيب أفرام بعقله، ويتخيل صادق ابنه الذي مات عند دخولهم البيت لأول مرة، وكأنه فأل شؤم على عائلته، ليبرر السماح لصادق بدخول بيته القديم وتقديم الحماية له حتى تنفيذ ما عزم عليه. ففي القسطل جن فلسطيني يثير جنون الإسرائيليين كما يقول الجميع من عرب ويهود، وتأكد وجوده بعد إصابة أفرام بالجنون حتى أن جينا جلبت له طارد الجن ليخرجه من جسمه، ولكن يبدو أن الأمر لم ينجح.

صادق يستغل الفرصة المواتية، ويزيح تعويذة الخمسة اليهودية، التي فشلت بحماية أفرام، ويداعب الحجارة، كأنها شخص يحبه، لا يهمه شيء لاسيما ذات عيني النمر، ولا حتى قدوم الشرطة، ويشرع يضرب بالمطرقة والأزميل، مردداً: «سأحضر لأمي ما طلبته، ولن أتنازل عنه، أنه شرفي». (ص: 240)

جاءت الشرطة، بقيادة قائد قزم، الذي خاطب صادق بحدة، من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟

فأجاب: «أنا صادق، هذا بيتي ...». (ص: 242) ورفع المفتاح المعلق برقبته. وتعمد الكاتب أن يجلب قائد شرطة قزم، حيث أن صادق أقوى وأطول منه، ليقول لنا أن صاحب الحق أقوى.

فعندما سأل القزم: «هل تستطيع أن توضح لي ماذا يفعل هؤلاء الناس هنا؟». (ص: 243)

رد بثقة وكبرياء لا كما رأى سيما أول مرة، حيث نكس عينيه وتركهما تحدقان بحذائه، على الرغم من وجود الجميع بمن فيهم الشرطة التي تملك القوة والسلاح. فقال: (هؤلاء ضيوفي ... هذا ضيفي، وهذه ضيفتي، وهذه أيضاً ضيفتي. منذ خمسين عاماً وأنا أستضيفهم هنا». (ص: 243)

وأخرج شهادة الطابو من قميصه، وأعطاها للقائد القزم: «هذا طابو الأتراك ... ومكتوب هنا أن هذا البيت يعود إلى عائلة عدانة، إنها عائلتي، إضافة إلى المساحة التي حوله أيضاً، نصف دونم). (ص: 243)

غضب القزم، بعد أن نظر إلى الشهادة، وأخذ يلوح فيها بالهواء دلالة على نفاد صبره، وألقاها أرضا صارخاً: «الأتراك لا يهمون مؤخرتي، إذا لم يكن لديك وثيقة رسمية من دولة إسرائيل فإنك =بالنسبة لي- تزيح الحدود!». (ص: 243)

كيف لمحتل وسارق أن يعطي وثيقة رسمية لصاحب الحق؟ وكيف لصاحب الحق أن ينسى ملكه وحقه رغم السنين. علت الأصوات، وأطلق القزم طلقة لا إرادية، فحضر الجيران وكل من سمع الأصوات، وحضر التلفزيون ومصوروه. وجرى اشتباك بالأيدي بين الجميع «وهرع كلب أسود كبير إلى الغرفة وأخذ ينبح». (ص: 250)

وطردت الشرطة التلفزيون ولم يعد أحداً يشعر بالإثارة، لانصراف طاقم التلفزيون، فخرجوا جميعا، وحتى الكلب الأسود.

تتجمع الأدلة؛ الطابو، وشجرتا التين والرمان، والكلب الأسود الذي يمتاز بالوفاء أكثر من بني البشر، يستمر صادق بالضرب، وأخرج اللبنة المهتزّة، فظهر الفراغ ومد يده، وأطلع كيساً، وتعلقت الأنظار نحوه، الكل يريد أن يعرف، أخرج سلسلة ذهبية من الكيس، ما زالت تلمع بالرغم من مرور خمسين سنة تقريباً (ذعر قلبي، هذه سلسلة الجدة شادية، لقد انتقلت بالوراثة من الأم إلى البنت الكبرى، من الأم إلى البنت الكبرى ما يقارب مئة سنة، وربما مائتين). (ص: 254)

تزداد الشواهد على الحق المسلوب، القائد القزم يطلب من صادق تسليمه السلسة، يرفض صادق الأمر فهي لعائلته.

فردت الشرطة: إنها ملك مسروق.

ابتسم القزم ابتسامة الأزعر، قائلاً: يمكن لك أن ترفع قضية، وإذا كسبتها تعال لقسم المصادرات وقهقه. وكأنه يقول اطلب العدالة، ثم يضحك بسخرية دلالة استحالة تحقيق العدالة هنا.

حضرت الكلمات التي كان صادق يبحث عنها في وجود التلفزيون ولم يعثر عليها، فقال بصوته القوي والحاد: «الذي يحدث هنا هو نكتة محزنة، ولكنها ستنتهي يوماً ما، يوماً ما سيصبح القوي ضعيفاً والضعيف قوياً، وعندها لن يضحك أحد منكم، صدقوني، لن يضحك أحد». (ص: 256)

يحذر الكاتب على لسان الفلسطيني الذي يتعرض للظلم والقهر واغتصاب حقوقه، من يوم يمتلك به المظلوم القوة، عندها لن يقف في طريقه أحد، وسيدفع الظالم الثمن غالياً، ولن يجد الوقت ليضحك.

وضعت الشرطة الأغلال في يديه، واقتادته إلى التحقيق، ضربوه، وصفعوه، ولكن كانت الفرحة في قلبه غامرة، فهو دخل البيت القديم، وعثر على السلسلة، عثر على شرفه المفقود، وافتعل ضجة كبرى، وجاء المصورون، وسيظهر كل شيء في التلفزيون، و«للمرة الأولى سوف يرون في التلفزيون عربياً يتحدث عن بيته، وسيصغي العالم أجمع، وستفتخر بي القرية بأكملها». (ص: 257)

العثور على الجوهرة المفقودة تنعش القلب، وتنسي أحزان الطريق إليها. ونبو يحاول دعوة الفلسطينيين إلى المقاومة السليمة، واستغلال وسائل الإعلام لتحقيق هدفهم، ولكن هل يمكن النجاح؟

يعاني صادق في السجن كثيراً، تراوده فكرة الموت كحال أغلب شخصيات الرواية، يفكر بالهرب، فعندما خرج ليبول تساءل، ماذا «لو يركض الآن ويتسلق الجدار، سيطلق الحراس عليه النار، رشّة ورشّة أخرى، وسينهي كل شيء. فليس هناك تنظيفات بعد، وليس هناك أعمال مذلة بعد، وليس هناك أشواق تحرق أعلى الحلق». (ص 374) ولكنه يعود نحو خيمته، يتمدد على السرير «ظهره يؤلمه، قلبه جائع، وعلى الرغم من ذلك، يغوص عميقاً عميقاً نحو الحلم». (ص: 374)

الرواية تدور حول الحنين لشخصياتها، وهنا صادق يحن لآخر المدى لبيته القديم، ويتملكه الحنين بقوة إلى العودة، والحصول على ما هو ملكه – السلسلة الذهبية، التي تعني رجوع الحق إلى أصحابه الشرعيين.

كما يحن لأمه الصابرة والمثمرة، ولزوجته ولأطفاله، ويصمم على اختيار الطريق الصحيح والآمن الذي سيوصله إلى المستقبل الجميل.

التعب هدّه، تعب من شوقه لنهيلة، وقلقه على أمه وأطفاله، تعب من السجن، ومن مصطفى عالم، لكن السلسلة الذهبية لا تفارق حلمه، فهي تهرب من قسم المصادرات «تحلق لتصل إليه، إلى عنقه، تداعبه، تخنقه، حتى يستيقظ». (ص: 463)

لا طريق إلى الراحة والآمان دون رجوع الحق إلى أصحابه، لهذا يقول مصطفى علام الذي سيقضي ربيع شبابه في السجن الاحتلالي إلى صادق: «اللي فات مات. والأحسن أن تفكر في المستقبل. فكر كيف تعود إلى القسطل مع كوماندو وتحتلها إلى الأبد». (ص: 453)

الكاتب أشكول نبو في أكثر من موضع في الرواية، يطالب بإحلال السلام على هذا الأرض، لأن عدم حدوث ذلك سيعجّل بالانفجار وسيدفع الجميع الثمن باهظاً. ولكنه ككل الكتاب اليهود، يطالب الفلسطينيين فقط بالتنازل عن موضوع حنينهم وعطشهم الدائم إلى العودة إلى أشجار التين والرمان والزيتون.

ويعمل نبو على حلحلة مشاكل كل العائلات اليهودية، فعمير ونوعا يرجعان لبعضهما بعد فراق قصير تحقق خلاله نوعا حلمها، ويعرف عمير إلى أين يريد أن يصل. وسيما وموشيه يتوافقان أخيراً بعد أن نزعت سيما طيف عمير من أحلامها، واستطاعت تحجيم تأثير مناحيم الراب الكبير على أخيه موشيه، وعلى ما يجري في داخل بيتها. ومودي الذي طال به السفر إلى الخارج، يحن إلى العودة إلى بيته، وقرر ذلك.

عائلة يوتام وحدها، تقرر الهجرة إلى استراليا، خشية حدوث مكروه ليوتام بعد مقتل أخيه الجندي في لبنان.

العائلة العربية الفلسطينية وحدها غير مستقرة، تشتاق وتحن بقوة إلى العودة إلى بيتها القديم، ويحول الاحتلال دون ذلك، وتتناقل هذا الحنين من جيل إلى جيل، وستبقى تتناقله حتى تحقيق الحلم.

جانب من حفل الاستقبال الذي نظمته المؤسسة على شرف عبد المحسن القطان.

خاتمة

تناولت هذه الدراسة، كيف تنظر الذات الإسرائيلية إلى الآخر الفلسطيني العربي، وأهمية هذه الصورة، التي ترتبط بتعريف الإسرائيلي لذاته، وعلاقته بالأرض. وبيّنت أن الأدب الإسرائيلي -رواية «أربعة منازل وحنين» كمثال- حدث فيه تطور إيجابي اتجاه صورة العربي الفلسطيني، فبعد أن كانت الصورة نمطية، فالفلسطيني ظهر في الأدب اليهودي إما في صورة قاتل وعنيف وإما كشخص مستلب لا يعي ذاته، ومنفصل عنها. وزخر هذا الأدب بكثير من الصفات القبيحة، ضد العربي كاللص، والقذر، وعابر السبيل.

نرى هنا العربي له شخصيته القوية، ويفرض وجوده، وله هويته المحددة التي ترفض الذوبان والزوال، وأن الآخر العربيّ الفلسطينيّ يظهر في الرواية ككابوس فوق رؤوس الإسرائيليين، لمجرد بقائه في بلده وعدم هروبه من أرضه. وهو كابوس أقلق جميع كتاب إسرائيل، وبخاصة الكاتب يهوشاع، الذي يظهر تأثر الكاتب نبو به، وبخاصة في روايتيه «**أمام الغابات**» و «**العاشق**».

لكن الواضح هو أنّ الصهيونية عجزت عن بناء مجتمع طبيعيّ وسويّ، فظلت إسرائيل في صراعات وحروب متواصلة مع جيرانها العرب، أو صراعات داخلية نابعة من الخلفيات الاجتماعية والثقافية لليهود القادمين من كلّ مكان في العالم، فيعيش الإسرائيلي في صراع دائم مع ذاته وانقساماتها الأيديولوجية.

إن جميع كتاب إسرائيل، وعلى الأخص اليسار الإسرائيلي، فشلوا في تغيير هوية الاستعماري الظالم، وإحداث تغيير شامل في الذات.

ويبقى السؤال: لماذا نقرأ الأدب الإسرائيلي ونحاول التعرف على أفكار مؤلّفيه؟

إنه من أجل معرفة عدوّنا، ومن نواجه في صراعنا المرير معه، فمن الضروري معرفة طريقته في التفكير، لتخمين ما قد يفعله فيما يستجد من أحداث.

أمين دراوشة
كاتب يقيم في رام الله

الهامش:

[1] نبو، أشكول. (د. ت). ترجمة: طارق أبو رجب، حيفا: مكتبة كل شيء.

عبد المحسن القطان خلال حضوره ورشة توظيف الرسوم المتحركة في التعليم.